بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا عرض موجز لأشهر كتب الرحلات عند العرب، قسمناها فيه أقساماً، فجعلنا منها الجغرافية والبحرية والبرية فى الأمم والبلدان . وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها ، ولكن هذا ما حدث فعلا ، فإن القوم لم يعمدوا إلى الكتابة فى الجغرافيا بطريق النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين ، بل كانوا يطوفون بأنفسهم فى العالم الإسلامى وغيره ، ويقيدون مشاهداتهم وما يقع تحت أبصارهم . فأصبحت كتاباتهم الجغرافية فى كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق، تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة اللاقطة ، على نحو ما يرى القارئ فى الفصل الأول من هذا الكتيب .

وفى ثبت الرحلات العربية تبرز رحلات بحرية ، رويت عن التجار والملاحين وهواة البحار . وهى تبدأ عند العرب بمغامرات تاجر يسمى سليمان ، قذف بنفسه فى لجج المحيط الهندى والهادى . ثم تتسع فتشمل مغامرات أخرى فى البحرين الأحمر والأسود، وفى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات . وتتضمن هذه المغامرات كثيراً من المعلومات عن البحار وحيواناتها وأسماكها وأصدافها والأقوام الذين يسكنون على شواطئها . ويصاغ ذلك فى أسلوب قصصى بديع ، يؤكد الواقع أحياناً، وينشئ لنا عوالم خيالية أحياناً أخرى . مما يراه القارئ ماثلا فى الفصل الثانى .

أما الرحلات فى الأمم والبلدان عن طريق البر وفى القوافل فهى كثيرة

كثرة مفرطة ، وهى أيضاً متنوعة ، فمنها ما يقف عند بعض البُلدان العربية كمصر ، ومنها ما يتجاوز حدود العالم العربىّ ، إلى عالم ناء بعيد كعالم البلغار وأوربة الشرقية ، أو عالم الهند والصين ، أو عالم السودان وإفريقية الوسطى . وفى كل هذه العوالم يكتب الرحّالة بمخيلة القَصّاص الذى يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة ، على نحو ما يراه القارئ فى الفصل الثالث .

ووقفنا فى الفصل الرابع عند رحلة ابن جبير فى العالم الإسلامى ، فقد عرض علينا هذا العالم عرضاً قصصيا شائقاً واقتبسنا منه بعض صوره الحية . وفى الفصل الخامس تحدثنا عن رحلة ابن بطوطة ، وعُنينا بقصصه عن الأقطار النائية مثل بلاد البلغار والمغول والهند والصين والسودان الغربىّ ، وقد يشفع حكاياته الحقيقية بحكايات خُرافية ، وهو فى كل ذلك يتقن الصنعة القصصية .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربىّ ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير رد على التهمة التى طالما اتُّهم بها هذا الأدب ، ونقصد تهمة قصوره فى فن القصة . ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدّمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر القوبلا وعبدة النار والإنسان البدائى والراقى مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالىّ حيناً آخر .

وقد انتفعت بما كتبه الباحثون قبلى فى هذا الموضوع وخاصة ما كتبه الدكتور حسين فوزى عن الرحلات البحرية فى « حديث السندباد القديم » . وأرجو مخلصاً أن يكون هذا الكُتَيِّب حافزاً للقراء أن يعودوا إلى كتب الرحلات ليقرءوها ، فإنها ذخائر نفيسة ، والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

شوقى ضيف

القاهرة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٥٦ م